دراسات أدبية

فى الأدب الايطالى الحديث

بقلم محمد أمين حسونه

— ٥ —

حنة فيفانتى وروايتها عن مصر

تعد حنة فيفانتى Anna Vivanti أستاذة فن الخيال الواضح والأسلوب الرفيع ، وقد بدأت حياتها فى انجلترا ، ولم تر وطنها — ايطاليا — إلا فى الثانية عشرة من عمرها عند ما نزحت من انجلترا لتتعلم فن الغناء . ففى هذه السن المبكرة تتلمذت لطائفة من رجال الأدب وفى مقدمتهم كاردوتشى ، ونشرت ديوانا من الشعر الغنائى « ليريكا » يفيض بالعواطف الذاتية والخيال الراق ، فلم يلبث نجمها أن تألق فى سماء الأدب الحديث

والواقع أن غنى اللغة الايطالية خطر عليها من بعض الوجوه ، فان طبيعة هذه اللغة تساعد على التمادى فى الوصف والاستغراق فى الخيال . ولما كان كتاب هذا العصر فى ايطاليا أميل إلى التأنق فى موسيقية اللغة ، وإلى المزاج الفنى الصريح ، فان أسلوب فيفانتى الخلاب وجد البيئة التى ينمو فيها ، وانطلق فى الجو الحالم مرددا العواطف المشبعة بعناصر الجمال . ففى روايات هذه الشاعرة نجد صفة نادرة الوجود عند كتاب الجيل المعاصر ، تلك هى غريزة الجمال . والانسان يشعر لدى مطالعته رواياتها بأن الطبيعة فى فنها تجاوزت منطقة الجلال ؛ وكما يفوق الناس بعضهم بعضاً فى المواهب وقوة الادراك السامية ، وتمييز الألوان والأصوات ، فان لفيفانتى قدرة على هتك أسرار الطبيعة وابرازها فى إطار فنى جذاب

ولما كان أسلوبها الروائى ليس من النوع التحليلى فالنتيجة هى أن الشخصيات الثانوية فى رواياتها أغزر حياة وتأثيراً من البطل نفسه ، كما فى رواية النجرية Eingaresca . ويمكن تقسيم أبطالها إلى قسمين : الفريق الأول وهم الأبطال الأقوياء الذين يتمتعون بالحياة إلى أقصى حد ، مع استفادتهم من ضعف الآخرين ؛ والفريق الثانى الفقراء الذين يحنون رؤوسهم أمام قسوة الحياة ذاكرين أنه من فعل القدر

وحنة فيفانتى صديقة وفية لمصر ، ويرجع تاريخ هذه الصداقة إلى يوم آزرت الوفد المصرى وهو واقف بباب مؤتمر الصلح فى باريس . وكانت من أخلص أصدقاء المغفور له سعد زغلول باشا ، وطالما أيدته فى صحف بلادها ؛ ولا عجب أن توحى اليها هذه الصداقة وتثمر فيها الضيافة التى لاقتها فى وادى النيل كتابة رواية « أرض كليوباترا Terra di Cleopatra » التى بدأتها بالرحيل إلى مصر ، إذ تقول :

حقاً إننى أحلم حلماً جميلاً من تلكم الأحلام الذهبية المترامية الأطراف ؛ فمتد ما يستيقظ الانسان فى الصباح ، ويحاول أن يقربها إلى ذهنه تفر أشباحها بعيدة عنه ، ولا تلبث أن تختفى فى وادى النسيان . برهة وجيزة أستيقظ بعدها فاذا بى فى صحراء ليبيا ، فوق بعير يجوب بى الصحراء متجهاً نحو قبر الملك الشاب توت عنخ آمون . يقود زمامه أعرابى طويل القامة ، عريض الهامة ، وتتفتح عيناى عن هذه الصحراء الذهبية ، فاذا بسرب من الفلاحات المصريات يرتدين أردية سوداء ، وفوق رؤوسهن جرار الماء ، وعند ما أقترب منهن يحدقن فىّ بعيونهن الدعجاء قائلات : « سعيدة ، نهارك لبن »

واستطردت الكاتبة فى وصف مشاهد الصحراء وأسواق القاهرة ، إلى أن أتت على مقابلتها للمرحوم زغلول باشا فقالت :

« وفى غداة يوم وصولى إلى القاهرة قصدت إلى بيت « الرئيس الجليل » الذى استقبلنى واقفاً خلف مكتبه ، وعلى رأسه ذلك الطربوش الأحمر الذى لا يرفعه المصريون للتحية ، بل يقونه فوق رؤوسهم كرمز للوقار . ويبدو لى الرئيس كما كنت أعرفه فى باريس منذ سنوات ، فلا العظمة ولا الاضطهاد ، ولا النفى ولا الهتاف باسمه فى الشوارع ، استطاع أن يغير هذه الهامة الطويلة ، ويضعف من ضياء عينيه الوقادتين . وكانت تقف إلى جانبه (صفية زغلول) التى حيتنى باشة مبتسمة . ودار الحديث بيننا بالفرنسية إذ أنها لغة الأحاديث الرسمية فى مصر ، ولأن البحث بالانجليزية أمر بغيض إلى قلوب المصريين . وما إن أبلغته

تحية أصدقائه من كتاب إيطاليا وصحفيها الذين أحاطوا قضية بلاده بعطفهم حتى قال :

— إنك كنت صديقة هذه البلاد ، وقد أعطيتها محبتك قبل أن تريها ؛ فها هي ذي أمامك ! اذهبي إلى أي مكان تشائين ، عسى أن تتكشف لك نفسية هؤلاء الفلاحين الساكين ، فهي نفسية نبيلة شريفة لكنها مجهولة

وعندما ودعته ختم حديثه معي بأن قال :

— عودي إلينا ثانية ، ولا تحسبي أن هذه آخر زياراتك ، وعدينا بذلك

وغادرت منزل الزعيم الوطني ووجهتي مصر العليا عن طريق النيل ، لأشاهد الأقصر بحدائقها الغناء ، وطيبة ذات المائة باب ، وكوم امبو بلدة المعابد ، وفيلي جوهرة مصر المكنونة

ها نحن أولاء في أسوان « مدينة الشلالات » التي يقصدها المعلولون طلباً للشفاء ، ويأتيها المكروبون عسى أن يفرجوا عن قلوبهم الحزينة أساها وبلواها . هنا حيث الاقامة في بقعة هادئة عميقة ، تكتنفها الصحارى من كل جانب ، يجد الايمان الصحيح طريقه إلى السماء

الله أكبر ، الله أكبر ! أدعية حارة صادرة عن قلوب عامرة بالايمان ، يرددها العرب في كل آن ، فيترجع صداها على شفاهنا المتبتلة بالتسبيح ، على حين يتوجه أبناء الصحراء شطر مكة ، وهم جاثون على الرمال ، يرددون اسم الله في تقوى وخشوع

أشرف على النيل ومياهه التي ينعكس عليها نور السماء الأزرق ، وعلى منظر الصخور التي تتراءى عن بعد كوحوش كاسرة ، راقدة تحت أقدام « اخنوم » إله الشلالات

وأخذ القارب ينساب بنا بين الجزر كالأفعى ، وترى الشمس تسقط رويداً رويداً عن الشفق ، فتلتهب السماء ، ويتغير لون الماء من سائل فضي إلى سبيكة من الذهب الابريز ، ثم تتحدر الشمس ككرة من نار ، والسماء تحترق فيقع ظلها المتورد الناري على صفحة المياه حتى حسبنا أنفسنا نسير في بحر من دماء

ها نحن أولاء أمام قصر أنس الوجود ، أمام فيلي ، جوهرة مصر المكنونة ، ودرتها الساطعة ، عروس النيل وريحانته ، إيه أيتها الجزيرة الصامتة الحزينة ! أيتها الجوهرة الميتة ، يا زهرة اللوتس ، يا جزيرة السحر ومهبط الجمال ، أيتها الجزيرة التي يتربع فوق صدرك آخر معبد فرعوني ، لقد غمرتك المياه فغرقت وتواريت ، ورحت ضحية خط الأرض وجوع الرجال !

والرواية مشبعة بأمثال هذه الصور الوصفية ، وتحت ستار شفاف من الحنين إلى الماضي ، والاشادة بمجد الفراعنة ، والتفاؤل بالمستقبل

بابيني

وجيوفاني بابيني Giovanni Papini من أغرب الشخصيات في الأدب الايطالي الحديث ، وقد اشتغل بالنقد قبل أن يصبح روائياً ؛ على أن الانتقال من النقد إلى الأدب ، أو المسرح ، أو الرواية أمر مألوف في ايطاليا

قبل الحرب العظمى كان بابيني ألمع شخصية في سماء الأدب ، ومحور الحياة الفكرية في الأوساط الايطالية ؛ وقد ظفر بهذه الشهرة إثر المقالات النقدية العنيفة التي كان ينشرها بعنوان « التدمير » ، والدراسات الفلسفية التي تحدى بها شوبنهاور ونيتشه وهيجل ، وأساتذة مدرسة الفلسفة الألمانية . ثم بفضل المجلات الأدبية العديدة التي كان يصدرها لثلاثين عاما خلت ، أي في الوقت الذي كانت الشبيبة الايطالية تتلهف على التهام كل ما يقدم اليها من ألوان الثقافة الحديثة ، فوجدوا ضالتهم في بابيني ، ومجدوا من شأنه . ولكن شباب هذا الجيل سرعان ما حولوا اتجاههم الأدبي عن فنه ، إذ أنهم لم يجدوا شيئاً يتعلمونه في كتبه سوى فلسفة جامدة ، وفن جاف مضطرب ، وتبشير بأساليب الكثلكة مع الرجوع إلى أحضان الكنيسة

وتعد أقوى روايات بابيني على الاطلاق « مذكرات الله » التي تحدث فيها عن خلق العالم ونشأته ، فرواية « الرجل الذي انتهى » ، وقد رسم بين سطورها حياة التاعب والآلام التي تنتاب طبقة المفكرين الذين يقضون نصف أعمارهم بين بطون الكتب ، والنصف الآخر في ظلال الفلسفة والنظريات السفسطائية

(البقية في العدد القادم)

محمد أمين حسونة